وفى تركستان كانت الدولة السامانية ، وفى أيامهم ازدهرت بخارى فكانت محط رحال العلماء والأدباء . وكان من ملوكهم منصور بن نوح (٣٥٠ هـ — ٣٦٦ هـ) الذى استوزر البلعمى العالم الفارسى ، وهو الذى ترجم له تاريخ الطبرى إلى اللغة الفارسية ، ومن بعد منصور كان ابنه نوح بن منصور (٣٦٦ هـ — ٣٨٧ هـ) وهو الذى رغب فى استدعاء الصاحب بن عباد وزير البويهيين سراً ليتخذه وزيراً . ويذكرون أن الصاحب بن عباد كتب إليه يعتذر بأنه محتاج إلى أربعمائة جمل لنقل كتبه . ولقد كان لنوح هذا مكتبة كبيرة ذكرها ابن سينا فى حديثه عن نشأته ، وأنه أفاد الكثير مما كانت تضم من كتب نادرة .

وفى طبرستان كانت الدولة الزيارية ، والمؤرخون يذكرون من ملوكها قابوس بن وشمكير (٣٦٦ هـ — ٤٠٣ هـ) وكان من أبلغ كتاب العربية ، ويذكرون له رسالة ألفها فى الاسطرلاب .

وفى أفغانستان والهند كانت الدولة الغزنوية ، وكان من أعرف ملوكها محمود الغزنوى ، وكان محمود هذا لا يسمع عن عالم أو شاعر إلا استقدمه ، ويذكر المؤرخون أنه حين علم أن فى مجلس مأمون بن مأمون أمير خوارزم جماعة من رجال العلم والفلسفة ، منهم ابن سينا والبيرونى وأبو سهل المسيحى وأبو الحسن الخمار وأبو نصر العراق ، كتب إلى مأمون أمير خوارزم كتاباً يقول له فيه : علمت أن فى مجلسك جماعة من العلماء المبرزين مثل فلان وفلان فأرسلهم إلى لنستفيد من علمهم .

وحين عرض أمير خوارزم الكتاب على من بحضرته من العلماء قبل بعضهم وامتنع بعضهم ، وكان ممن قبل البيرونى الفلكى المؤرخ والعراق الرياضى ، والخمار الطبيب .

وفى حلب والموصل كانت دولة الحمدانيين . اشتهر منهم سيف الدولة أبو الحسن على صاحب حلب (٣٣٣ هـ — ٣٥٦ هـ) ممدوح المتنبى . ويقال : إنه لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء مثل ما اجتمع ببابه من فحول الشعراء .

وفقدت بغداد مكانتها الأولى فى ظل هذه الدويلات ، وأخذ العلماء يخرجون عنها إلى تلك الدويلات ، وانتشروا فى تلك الرقعة الفسيحة من أقصى تركستان شرقاً إلى أقصى الأندلس غرباً ، وأخذ العلماء ينتسبون إلى مواطنهم بعد أن كانوا ينتسبون إلى أصولهم ، وأصبحنا نرى من بينهم البخارى والنيسابورى والرازى والمصرى والأندلسى ، بعد أن كنا نعرفهم باسم الحميرى والمازنى والقرشى .

وهذه الرغبة من السلاطين والملوك فى العلم والإيثار لأهله جمعت العلماء على التحصيل وجعلتهم يعتزون بالانتماء إليه ، ورأينا منهم بيوتات بأسرها عرفت بانتسابها إلى العلم وشهرت بذلك ، منهم آل ميكال فى خراسان ، وكان منهم أبو الفضل الميكالى وأبو محمد الميكالى ، ثم آل المأمون — وهم من نسل الخليفة المأمون — وآل الواثقى — من نسل الخليفة الواثق — فى بخارى .

ولقد كتب للتأليف أن يروج بما كان يبذله الملوك والسلاطين من جوائز سنية ، وأقبل هؤلاء العلماء على التأليف ؛ يذكى فيهم رغبتهم فى العلم الطمع فى الجاه والأمل فى الجائزة . ورأينا منهم من يقصد البويهيين ليحظى بما عندهم على مؤلف ، ثم إذا هو طامع فيما عند غيرهم فيقصد قصد السامانيين ثم قصد الغزنويين ، كما فعل أبو منصور الثعالبى (٤٢٩ هـ) فالمؤرخون يذكرون أنه ألف كتابه « لطائف المعارف » للصاحب ابن عباد وزير البويهيين ، و « التمثيل والمحاضرة » لقابوس بن وشمكير ، ملك الدولة الزيارية بطبرستان ، و « فقه اللغة » لأبى الفضل الميكالى فى خراسان ، و « اللطائف والظرائف » للمأمون صاحب خوارزم .

وهذه الكثرة فى التأليف ، التى كانت طابع هذا العصر ، تبعتها كثرة فى المكتبات ، ولقد حدثتك عما

ونجد اسم رجلنا هذا يذكر فى كتابه « الفهرست » مع مستهل الجزء السابع على هذا النحو : محمد بن إسحاق النديم ، المعروف بأبى الفرج بن أبى يعقوب الوراق، ثم يذكر مع مستهل الجزء الثامن[1] على هذا النحو : محمد بن إسحاق النديم ، المعروف إسحاق بأبى يعقوب الوراق .

ويذكر مع مستهل الجزء التاسع[2] على هذا النحو : محمد بن إسحاق بن محمد بن إسحاق ، المعروف إسحاق بأبى يعقوب الوراق .

ويذكر مع مستهل الجزء الماشر على هذا النحو : محمد بن إسحاق النديم ، المعروف إسحاق بأبى يعقوب الوراق .

وفى المقالة العاشرة من هذا الجزء العاشر يذكر على هذا النحو : محمد بن إسحاق النديم المعروف بابن أبى يعقوب الوراق[3] .

فمع المرة الأولى كنى بأبى الفرج ، ولم تكرر هذه الكنية مع سائر المرات التى ذكر فيها اسمه .

ونجد اسمه فى الموضع الثالث — أعنى مع مستهل الجزء التاسع — يذكر له جد اسمه كاسمه محمد ، ثم جد أعلى اسمه كاسم أبيه وهو إسحاق. وهذا السياق من النسب هو الذى ذكره الصفدى فى الوافى وابن حجر فى لسان الميزان .

ثم نجد هذه المواضع كلها من الفهرست تجمع على أن أباه إسحاق يكنى أبا يعقوب ، كما تكاد تصرح بأن الوراقة كانت صناعة أبيه أبى يعقوب إسحاق لاصناعته. وليس ببعيد أن يكون محمد قد ورثها عن أبيه وهو الذى نقف عنده كما وقف عنده ياقوت فلقد قال : ولا أبعد أن يكون وراقاً — وهو يعنى محمد بن إسحاق — يبيع الكتب . وينضاف إلى هذا النص الأخير الذى جاء مع مطلع المقالة العاشرة وهو المعروف « بابن أبى يعقوب الوراق » ، إذ هو يحتمل أن تكون الوراقة صناعته ، كما يحتمل أن تكون صناعة أبيه .

ونجد نص ابن حجر مطلقاً لا يؤكد واحدة من الاثنتين فهو يقول : محمد بن إسحاق بن محمد بن إسحاق النديم الوراق .

أما عن تلقيبه بالنديم فيكاد يكون هذا خالصاً له لا نصيب لأبيه فيه ، والنصوص التى وردت فى كتاب الفهرست لا تملى غيره .

ولكنا نجد نص الذهبى الذى نقله ابن حجر عنه يردنا إلى الشك ، وذلك حين يقول : محمد بن إسحاق ابن النديم . ونص الذهبى كما نرى — إن صح — يبعد هذا اللقب عن رجلنا محمد ويخلعه على أبيه — ان كانت عبارة « ابن النديم » على البدل من عبارة « ابن إسحاق » — أو على الجد الأول لرجلنا وهو محمد ، إن صرفت العبارة على غير البدل .

ونحن على هذا لا نعرف لم لقب مؤلفنا بالنديم ؟ فلقد سكتت المراجع عن هذه . ولعل عبارة الذهبى التى نقلها ابن حجر — وهى : الإخبارى الأديب — وعبارة الصفدى — وهى : الإخبارى — تلقيان بصيصاً من الضوء على هذا اللقب ، فلقد كان إخبارياً أديباً فما أولاه أن يكون نديماً ينادم الناس بأخباره .

وللرجل شيوخ كثيرون سمع منهم ونقل عنهم ، هذا غير كثرة ممن سبقوه ولم يلحقهم نقل من كتبهم التى وقعت له .

فهو يذكر أنه سمع من أبى الخير الحسن بن سوار بن الخمار ، وأبى الفرج الأصفهانى ، وأبى سعيد ، وأبى أحمد ، وأبى الحسن محمد بن يوسف الناقط ، وأبى إسحاق السيرافى ، وإسماعيل الصفار ، ويونس القس .

---

(١) الفهرست (ص ٤٢٢) طبعة مصر .
(٢) الفهرست (ص ٤٤١) مصر .
(٣) المهرست (ص ٤٩٧) طبعة مصر .

الفهرست هذا الذى يرميه به ابن حجر ، فابن إسحاق كما عودنا فى كتابه لا يدخل فى تفصيل إلا فى القليل النادر ، وهمه إيراد عن سماع أو مشافهةأو مكاتبة أو النقل من كتاب ، حين يذكر أسماء المؤلفين من هذه الفرق الإسلامية ويذكر كتبهم ، بل نراه يأخذ بالأحوط عند نقله شيئاً يرى فيه اسرافاً أو غلواً، فنراه يقول مثلا عند الكلام على مذهب الإسماعيلية : قال أبو عبدالله ابن رزام فى كتابه الذى رد فيه على الإسماعيلية — وهم فرقة من الإمامية المخالفة للزيدية والكيسانية ، ساقوا الإمامة إلى جعفر وزعموا أن الإمام بعده إسماعيل — : وكشف مذاهبهم ما قد أوردته بلفظ أبى عبدالله ، وأنا أبرأ من العهدة فى الصدق عنه والكذب فيه(١).

ويقول فى موضع آخر عند الكلام على أسماء كتب الشرائع المنزلة على مذهب المسلمين ومذاهب أهلها : قرأت فى كتاب وقع إلى قديم النسخ يشبه أن يكون من خزانة المأمون ذكر ناقله فيه أسماء الصحف وعددها والكتب المنزلة ومبلغها ، وأكثر الحشوية والعوام يصدقون به ويعتقدونه، فذكرت منه ما تعلق بكتابى هذا، وهذه حكاية ما يحتاج إليه منه على لفظ الكتاب(٢) .

وأما عما يختص بالشافعى وما ذكره ابن النديم من افتراء عليه ، كما يقول ابن حجر ، فابن إسحاق يقول وهو يترجم للشافعى : قرأت بخط أبى القاسم الحجازى فى كتاب الأخبار الداخلة فى التاريخ(٣)، ثم يسوق ما يسوق نقلا عن أبى القاسم .

وابن حجر يذكر من عجائب ابن إسحاق أنه وثق عبد المنعم بن إدريس ،ونحن لا نجد عن عبد المنعم بن إدريس غير كلمات معدودات تقع فى نحو سطرين يقول فيها ابن إسحاق : عبد المنعم بن إدريس بن سنان بن ابنة وهب بن منبه . مات سنة ثمان وعشرين ومائتين وبلغ فوق المائة السنة وعمى آخر عمره ، وله من الكتب كتاب المبتدأ(١). وأنت ترى أنه ليس ثمة توثيق أو غير توثيق .

وتوثيق ابن إسحاق للواقدى ، وهو مما يعيبه ابن حجر عليه ، فكل ما قاله عنه ابن إسحاق : « وكان يتشيع حسن المذهب يلزم التقية(٢) » . والغريب أن ابن حجر حين ترجم للواقد فى كتابه « تهذيب التهذيب»(٣) نقل نقولا تشهد للواقدى وتزكيه ، منها ما نقله عن إبراهيم الحربى ، وهو: « كان الواقدى أعلم الناس بأمر الإسلام » ومنها ما نقله عن مصعب الزبيرى ، وهو : ما رأيت مثله قط . وكذلك ما نقله عن أبى عبيد وهو: « الواقدى ثقة » . ومانحب أن ننقل ما نقله ابن حجر من نقول أخرى تؤذى الواقدى ، فما أردنا غير أن نقول : إن الواقدى مختلف فى أمره اجتزأ ابن إسحاق بما للواقدى وأورد ابن حجر ما له وما عليه، وفرق بين الرجلين — أعنى ابن إسحاق وابن حجر — فى كتابيهما ، فابن إسحاق لا يعنى فى كتابه بالتفصيل حول الرجل ، وإنما يعنى بكتبه . وابن حجر يعالج الرجال معالجة رجل الحديث يضعف ويوثق ، وليس على ابن إسحاق من ضير فيما اجتزأ به ، وما نظن ابن حجر يملك من هذه حجة على ابن إسحاق .

والذى تجنى فيه ابن حجر على ابن إسحاق فى هؤلاء تجنى فيه أيضاً عليه فى إسحاق بن بشر ، وكأنه لم يرقه أن يتكلم عنه ابن إسحاق بقليل أو كثير ، لأنه يراه من الكذابين .ولو أن ابن إسحاق أغفل ذكر ابن بشر لم يكن قد وفى عمله فى كتابه ،فإسحاق بن بشر مؤلف وله من الكتب : كتاب المبتدأ ، وكتاب الردة ، وكتاب الجمل ، وكتاب الألوية ، وكتاب صفين ، وكتاب حفر زمزم ، وابن إسحاق لم يورد لابن بشر غير هذا(٤)

(١) الفهرست (ص ٢٦٤) طبعة مصر .
(٢) المهرست (ص ٣٢) طبعة مصر .
(٣) الفهرست (ص ٢٩٤) طبعة مصر .

(١) المهرست (ص ١٣٨) طبعة مصر .
(٢) المهرست (ص ١٤٤) طبعة مصر .
(٣) تهذيب التهذيب (٩ : ٣٦٣ — ٣٦٨) .
(٤) المهرست (ص ١٣٧) طبعة مصر .

فإذا ما جاوزنا الثمانين وتصفحنا تراجم أصحابها — أعنى الذين ماتوا بعد الثمانين وثلاثمائة. ومنهم ابن جنى «الذى كانت وفاته سنة ٣٩٢ هـ[١]، والكاغدى الحسين ابن على ، وكانت وفاته سنة ٣٩٩ هـ[٢]» ، وابن نباتة التميمى ، وكانت وفاته بعد الأربعمائة[٣]، لا نجد أثراً لهذه العبارة .

غير أنا نجد ثمة تراجم أخرى لرجال كانت وفاتهم بعد الثمانين وتحمل تراجمهم هذه العبارة، منهم أبوالفرج المعافى بن زكريا[٤]، وكانت وفاته سنة ٣٩٠ هـ[٥]، فيقول ابن النديم : وهو يترجم له : فى عصرنا . ويقول : وله من الكتب فى الفقه وغيره ما أنا ذاكره إلى وقتنا هـــذا .

ثم عيسى بن إسحاق بن زرعة[٦]، وكانت وفاة ابن زرعة سنة ٣٨٨ هـ[٧]، فيقول ابن النديم وهو يترجم له : فى زماننا هذا ، ويذكر أن مولده كان سنة ٣٣١ هـ .

وابن النديم يذكر أنه قرأ بخط عبدالله بن على بن الجراح أنه سأل ابن أبى الأزهر عن عمره فى سنة ٣١٣ هـ[٨].

ويقول فى ترجمة البردعى أبى بكر محمد بن عبدالله : رأيته سنة ٣٤٠ هـ ، وكان بى آنساً[٩].

فنحن نرى أن ابن النديم لم يكن عند سنة ٣١٣ هـ قد استوى ، وأنه عند الأربعين والثلاثمائة كان قد استوى وأخذ يتلقى عن الناس ، وتكاد هذه تدفعنا إلى القول بأن ابن النديم كان مولده فى أواخر العقد الثانى من القرن الثالث ، وقد يكون بعد هذا بقليل .

هذا عن مولد ابن النديم أما عن وفاته ، فإنا نجد الصفدى يذكر أن وفاته كانت سنة ثمانين وثلاثمائة (٣٨٠ هـ[١])، ثم نجد ابن حجر فى «لسان الميزان» ينقل عن أبى طاهر العرضى أنه مات فى شعبان سنة ثمان وثلاثين . ولعل هذه محرفة عن ثمانين وثلاثمائة لتتفق وما أورده الصفدى .

ثم نجد ابن النجار فى ذيله على تاريخ بغداد يذكر أنه مات يوم الأربعاء ، لعشر يقين من شعبان سنة ٣٨٥ هـ[٢] .

وبعد هذا نجد ابن حجر ينقل عن الذهبى من كتابه «تاريخ الاسلام» فيقول: وقد ذكر له الذهبى ترجمة فى «تاريخ الإسلام» فيمن لم يعرف له وحده على رأس الأربعمائة . . ذكر أنه صنف الفهرست سنة سبع وسبعين وثلاثمائة . ولا أعلم متى توفى » .

ويعقب ابن حجر فيقول : قلت : ورأيت فى الفهرست موضعاً ذكر أنه كتب فى سنة اثنتى عشرة وأربعمائة ، فهذا يدل على تأخره إلى ذلك الزمان .

غير أن ابن حجر لم يعين هذا الموضع الذى ذكر فيه هذا الكلام من الفهرست ولم يهدنا الاستقصاء إليه .

وهكذا تجد الاضطراب فى وفاة ابن النديم كما وجدته فى مولده ، غير أنا نكاد نميل مع ابن حجر إلى أن وفاته كانت متأخرة ، وأنها كانت بعد الأربعمائة . يؤيدنا ما ذكره ابن النديم عن وفاة ابن نباتة التى جاءت فى سياق كلامه عنه ، وذلك حين يقول : « أبو نصر ابن نباتة التميمى من شعراء سيف الدولة وتوفى بعد الأربعمائة » .

---

(١) الفهرست (ص ١٢٨) .
(٢) الفهرست (ص ٢٤٨) طبعة مصر .
(٣) الفهرست (ص ٢٤٠) .
(٤) الفهرست (ص ٣٢٩) .
(٥) شذارات الذهب (٣ : ١٣٤) .
(٦) الفهرست (٣٦٩ — ٣٧٠) .
(٧) هذا ما ذهب إليه القفطى فى كتابه تاريخ الحكماء (٢٤٥ — ٢٤٦) غير أن ابن أبى أصيبعة فى كتابه عيون بناه (١ : ١٣٥) يذكر أن وفاته كان سنة ٤٤٨ هـ .
(٨) الفهرست (ص ٢١١) .
(٩) الفهرست (ص ٣٣٠) .

(١) الوافى بالوفيات (٢ : ١٩٧) .
(٢) الفهرست . المقدمة (ص ١٢) طبعة أوربا .